تقريظ عبد الواحد الإدريسي

الحمد لله حق حمده، أمر بإسلام النفوس إلى بارئها، وتصحيح الوجهة نحو كمالها، وموافقة الفطرة التي فطر الناس عليها، والصلاة والسلام على خيرة الخليقة كلها؛ أفاض عليه ربه من التأييد، والتسديد، والحكمة بأعلى مراتبها، ما جعل هديه خير الهدي، لا تصل البشرية إلى شيء من مقاصدها؛ الذاتية والاجتماعية؛ إلا وله الفضل في إبانة طريق الرشاد فيها، فإنه ندب إلى صرف الهمة في طلب المعاش، وأمر بحفظ الأمن، وحماية النظام، وأرشد إلى التعليم، ووضع موازين العدل، وهدى إلى الصراط القويم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته أجمعين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن السيرة النبوية مفصل قصة الإنسان في أكمل ما يبلغه من الوعي، وأرقى ما يكون عليه من السلوك، هذه حقيقة تاريخية نعتقدها معشر المسلمين، وندعو عامة الناس إلى اكتشافها، من خلال مناهج البحث العلمي، والسؤال المنهجي؛ عن مواقف محمد ﷺ، وسننه في جميع أحواله وعلائقه، مما تستمر الحاجة إليه على مر الزمان. فقد حفظت مدونات السيرة للناظرين والسائلين؛ تفاصيل كثيرة عن حياته ﷺ؛ الشخصية، والأسرية، والاجتماعية، وقراراته السياسية، في أبعادها الداخلية، والخارجية، والحضارية؛ من قضايا انتصار وإقدام، أو ضعف ودروس انهزام، أو مكابدة تربية وتعليم الإنسان، أو تنشيط دوران الأملاك، وتنظيم تداول الأموال، أو نسج وشائج الاتصال الاجتماعي وتوثيق عروة دولة الإسلام، حتى إن المنصف ليقر غير مجازف ولا متردد؛ أن السيرة النبوية مصدر لأصول العمران؛ التي يحتاج إليها الإنسان كلما تقدم في التمدن والصناعة والتقدم في عوالم الأشياء والأفكار، بحيث لم يبق للعلماء المختصين؛ إلا أن يكيّفوا هذه الأصول مع معطيات الزمان والمكان؛ في

شقها المادي، الذي لا يشرف به لذاته آدمي؛ وإن بلغ ما بلغ، إذا فسد اعتقاده، وساء فكره وفهمه، وأظلم منطقه وسلوكه.

إن ما أخذه الناس -ويأخذونه- من هدي محمد ﷺ؛ من قضايا السلوك، ومسائل العلوم، والفكر، والتشريع؛ سواء بشكل مباشر معترف به، أو بطريق غير مباشر؛ يجحد فضله فيه كثير وعظيم، فإنه لا يبلغ أحد بعده؛ أن يكون له قدره؛ في الرحمة للعالمين، والنفع لهم ببيان طريق السلامة والسعادة في الدارين.

واعتبر بأصل العدل الذي هو ركن في الاجتماع البشري، وأساس في العمران، وايم الله إن العالم كله عالة فيه على محمد ﷺ، فقد كان المثال في تطبيق قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، لأنه أيقن أن لا صلاح للبشرية في جميع أمورها إلا بالعدل، فالمحاباة فيه؛ بحسب القرابة، أو الجاه؛ مقوض لكيان العمران، ولذلك كان من قبس الحق المروي عنه؛ لما سرقت المرأة المخزومية، فأرادوا أن يكلموا فيها رسول الله ﷺ، فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد،حب سول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: "أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"، فالكيان الاجتماعي الذي بناه محمد ﷺ؛ هو المثل الأعلى لجميع كيانات الأرض، وحكوماتها، ومن أسسه التي صارت مناراً لمتقدمي الأمم؛ العدل بين مكوناتها الاجتماعية؛ مواطنيها، وذوي الأمان فيها، وإن اختلفت طوائفهم الملية، فإنه لا قداسة، ولا رفعة لأمة؛ لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع.

واعتبر أيضا بأس آخر؛ هو التأليف بين الأفراد، والقبائل، والشعوب، لبناء مفهوم الأمة الذي أقامه البشير النذير ﷺ؛ في أسمى، وأرقى ما يكون عليه العمران البشري إذا اتسع وتفرع، فالأمة في هدي محمد ﷺ واحدة، وإن تباعدت أقطارها،

وتعددت أجناسها. لما جمع البخاري كتاب المناقب من جامعه الصحيح؛ جعل على رأسه؛ أصل المناقب كلها؛ فترجم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأصل مناقب أمة الإسلام بقوله: باب قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١]، وما ينهى عن دعوى الجاهلية، وروى فيه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ، قال: "تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا، وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية...".

ومن الفقه الذي تكون به الخيرية ما كان في كليات وجود الأمة وبقائها، وسنن عزتها بتلمس الهداية في جميع شؤونها؛ من الينبوع الأول الذي هو الأصل في الصلاح والسداد؛ فيما يطلب من أمور الدين والدنيا. فإذا أهمل الخلف مقومات الأمة؛ في دينها، ولغتها، وتشريعها، وأخلاقها، وعاداتها، وتاريخها، وتركوا التفقه فيها، والعمل بمقتضاها؛ صاروا عرضة لفساد العمران، وأضاعوا مناقبهم عروة عروة، وانتهوا إلى ضحضاح من الذل والهوان، وتقلب الكيان، وتقوض البنيان. ألا وإن الركن الأعظم في سنن عمران الأمة؛ التي دلت عليها التجربة الناجحة للمعصوم ﷺ؛ إصلاح نفس الإنسان، وتحويل وجهته نحو الصلاح، وتغيير إرادته إلى الإصلاح، بذلك يكون الصعود في مراقي العمران، والترقي في مدارج التقدم الحضاري لاستحقاق أعلى المناقب.

والمدخل لاستئناف المسير وإصلاح الخلل؛ الاسترشاد بالسيرة النبوية، والاستهداء بأنوار النبوة وهداياتها؛ باستنباط أصول الاجتماع البشري، والتفريع على قواعد البناء العمراني، المأخوذة من ركن الائتساء العالمي، المطبق الأمثل لآيات الذكر الحكيم بشكل عملي، المخصوص بالتأييد بالهداية، والحفظ من الغواية، ﷺ، ومن نجوم الاقتداء الذين اصطفاهم الله لصحبته، فعلا بهم الحق وانتشر، وسفل على أيديهم الباطل واضمحل، وكان لحكمتهم البقاء، ولسياستهم الرشد والارتقاء.

تلكم خلفية هذا الكتاب الفريد، وذلكم مرامه، كما فقهته عنه، واستفدته منه، فقد سعى فيه صاحبه؛ الأستاذ المقتدر الدكتور عزيز البطيوي -أسعده الله- إلى استخلاص جملة من سنن العمران البشري، من خلال قراءة تاريخية متأنية، ونظر دقيق في جزئيات المواقف والتصرفات النبوية، وصياغة علمية لقواعد العمران البشري؛ بتأصيل وإحكام، وتفصيل بضرب المثال، واجتهاد في الاستدلال، فأنا زعيم أنه سيتبوأ مكانة سامية في قائمة دراسات السيرة النبوية الشريفة، وأنه سيكون بحول الله؛ مرجعاً رائداً للطلاب في العلوم الشرعية والاجتماعية، وسيجد المدرسون في فصوله مادة مناسبة؛ لتجويد درس السيرة النبوية وتجديده، كما يترجح أن يكون معتمداً في بناء رؤى إصلاحية ثاقبة؛ في التغيير المنشود، والإعمار الذي يتطلع أولو الفكر والدعوة الشهود. فجزى الله المؤلف خيراً على هذا السفر المفيد، المستجيب لحاجات فكرية ملحة، ومقتضيات وقتية واضحة.

د.عبد الواحد إدريس الإدريسي
منسق ماستر الخطاب الشرعي وقضايا العصر
كلية الآداب/ جامعة ابن زهر - أكادير

obeikandl.com